تفسير سورة المزمل

جزء تبارك والتعليق على تفسير السعدي

- رحمه الله -

لفضيلة الشيخ /

أ.د: سُلَيْمَان الرحيلي

- حفظه الله -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمة الله وَبَرَكَاتُهُ،الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخرين، وأشهدُ أن نَبِيَّنَا محمدًا عبده ورسوله سيد ولد آدم أجمعين -صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وَصَحْبِهِ وسلّم تسليمًا كثيرًا-، أما بعد:

فمعاشر الفضلاء؛ اشكروا الله -عزَّ وجلَّ- على نعمه، بلغكم رمضان، وبلغكم العشر، وجعلكم من عمار مسجد رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، تعمرونه بالصلاة والذكر وطلب العلم، وأنعم عليكم بمجلس علم في مسجد رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، تتقربون به إلى الله، ترجون أن تنالوا به رضا الله -سبحانه وتعالى-، أن تتنزل عليكم الرحمة والسكينة، وتغشاكم الرحمة، وتحفكم الملائكة، ويذكركم الله فيمن عنده، ترجون من الله أن تقوموا من مجلسكم هذا بأجر الحاج الذي تم له حجه، وأجر المجاهد في سبيل الله.

وإني لأسأل ربي الكريم -سبحانه وتعالى- أن يكتب لنا جميعًا ذلك، وأن يزيدنا من فضله أضعافًا أضعاف.

معاشر الأحبة، معاشر الفضلاء نواصل تفسير سورة المزمل، فيتفضل الابن نور الدين -وفقه الله والسامعين- يقرأ لنا.

(المتن)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا والسامعين.

قال الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله تعالى-: فلما أمره الله بالصلاة خصوصًا، وبالذكر عمومًا، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل من الأعمال، أمره بالصبر علىٰ ما يقول فيه المعاندون له ويسبونه ويسبون ما جاء به، وأن يمضي علىٰ أمر الله، لا يصده عنه صاد، ولا يرده راد، وأن يهجرهم هجرا جميلًا، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه.

(الشرح)

أي: هو الهجر المشروع.

وشرطه: أن لا يكون فيه اعتداء، وأن لا يكون فيه أذى لم يأذن الله -عزَّ وجلَّ- به.

هجرك لأحد بمقتضى الشرع لا يبيح لك أن تطلق لسانك فيه، وأن تنال من عرضه، أو تسب أهله، أو تسب أولاده، أو نحو ذلك، الهجر الجميل هو الهجر الذي لله، تهجر لله بإذن الله، وفق شرع الله، لا تظلم ولا تعتدي.

(المتن)

قال: وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن.

قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾[المزمل:١١] ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾[المزمل:١٢] ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾[المزمل:١٣] ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾[المزمل:١٤].

(الشرح)

في هذه الآيات يأمر الله -عزَّ وجلَّ- نبيه صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم بأن يتركه -سبحانه- والمكذبين الكفار أهل النعم الذين أطغتهم النعمة، فإنه إن شاء أهلكهم -سبحانه وتعالى-، وإن شاء أملى لهم، وهو -سبحانه- القادر عليهم، فلا يعجزونه، وهو -سبحانه- بحكمته وعمله وقدرته إن أخرهم قليلًا مدة بقاءهم في الدنيا، فإن الدنيا مهما طالت قليلة، وهم إن ماتوا على كفرهم صائرون إلى الذل الشديد، والعذاب المهين، وإن شاء -سبحانه- عذبهم بأيدي المؤمنين في الدنيا.

ويخبر الله -عزَّ وجلَّ- نبيه صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم والمؤمنين أن لديه -سبحانه- لهؤلاء الكفار المعاندين قيودًا عظيمة، هي من النار، يعذبون فيها عذابًا شديدًا، ونارًا تسعر شديدة الحرارة، وطعامًا مرًا بشعًا كريه الطعم، خبيث الرائحة، لا يكاد آكله يسيغه؛ بل هو ذو غصة في الحلق، لا ينحدر ولا يخرج إلا بألم شديد، وذلك في يوم تضطرب فيه الأرض إضرابًا عظيمًا، وتتزلزل من الهول العظيم في ذلك اليوم، وتكون الجبال الصلاب رملًا متناثرًا متطايرًا منهالة كالرمل ينهال من أعلاه إذا حُرِك

أسفله، وما ذاك إلا لهول ذلك اليوم، لا تتحمله الجبال الصلاب، ولا الأرض الشديدة؛ بل تتزلزل الأرض، وتصبح الجبال رملًا متطايرًا متناثرًا.

(المتن)

قال الشيخ السعدي -رحمه الله تعالى-: {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ} أي: اتركني وإياهم.

(الشرح)

اتركني وإياهم فإني كافيكهم ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[الزمر:٣٦].

(المتن)

فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم فلا أهملهم.

(الشرح)

إن أمهلتهم في الدنيا فما هو إلا قليل، وسأخذهم بعذاب شديد يوم القيامة.

(المتن)

وقوله: {أُولِي النَّعْمَةِ} أي: أصحاب النعمة والغنى.

(الشرح)

لأن الغالب أن هؤلاء أنما يطليهم غناهم، وتطليهم النعمة التي يُنعم الله -عزَّ وجلَّ- بها عليهم، ويظنون أنهم إنما حصلوها بأنفسهم، وكدهم، ومكرهم، وذكائهم، فلا تلين قلوبهم بنعمة ربهم عليهم؛ بل يزدادون طغيانًا بهذه النعمة.

(المتن)

الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله كما قال تعالى: {كَلا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى}.

ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال: {١٢ - ١٤} {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلا}.

(الشرح)

هذا وعيد للكفار المعاندين، وتسلية للنبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم والمؤمنين.

فهذا الكلام فيه أمران:

الأمر الأول: الوعيد الشديد لهؤلاء الكفار المعاندين.

الأمر الثاني: التسلية للنبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم والمؤمنين.

والوعيد الشديد يقتضي من أولئك الكفار لو كانوا عقلاء أن يؤمنوا، والتسلية للنبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم والمؤمنين تقتضي أن يصبروا.

(المتن)

أي: إن عندنا {أَنْكَالا} أي: عذابًا شديدًا، جعلناه تنكيلًا للذي لا يزال مستمرًا علىٰ ما يغضب الله.

(الشرح)

({أَنْكَالا})، فسرها المفسرون بالقيود، قيود من نار يقيدون بها، فهي قيد لهم، وتعذيب لهم في نفس الوقت.

(المتن)

{وَجَحِيمًا} أي: نارًا حامية.

(الشرح)

أي: نارًا حامية تُسعر، تزداد حرارتها، ولا تخبوا.

(المتن)

{وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ} وذلك لمرارته وبشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن.

(الشرح)

فهو لذلك يقف في الحلق، صاحبه لا يكاد يسيغه، يأكله لجوعه؛ لكنه يقف في حلقه لشدة مرارته، وخبث رائحته.

وقال بعض المفسرين: ({ذَا غُصَّةٍ})، أي: ذا شوكةٍ يقف في الحلق، فلا ينحدر ولا يخرج.

وقيل: أن الطعام ذا الغصة هو شجرة الزقوم. **وكلها مرادة هنا:**

فطعامهم خبيث الشكل، مر الطعم، منتن الرائحة، يكون فيه شوك إذا وصل إلى الحلق لا يكاد ينحدر، وقد تعلق الشوكة في الحلق بهذا الطعام، فلا يستطيع صاحبه أن يخرجه، ولا ينحدر إلى جوفه.

(المتن)

{وَعَذَابًا أَلِيمًا} أي: موجعًا مفظعًا، وذلك {يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ.

(الشرح)

{تَرْجُفُ}، أي: تتزلزل وتتحرك.

(المتن)

من الهول العظيم، {وَكَانَتِ الْجِبَالُ} الراسيات الصم الصلاب {كَثِيبًا مَهِيلا} أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر.

(الشرح)

الرمل المنهال: هو الذي ينهال من أعلاه إذا حُرك أسفله، فينهال انهيالًا.

(المتن)

ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهباء المنثور.

قال: -تعالى-: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾[المزمل:١٥] ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[المزمل:١٦] ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[المزمل:١٧] ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾[المزمل:١٨] ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾[المزمل:١٩].

(الشرح)

يخاطب الله -عزَّ وجلَّ- من أُرسل إليهم النبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم، ممتنًا عليهم، ومبينًا عظم النعمة ببعثة محمد صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم إلى الناس جميعًا، وهذا لو كانوا يعقلون يقتضي شكر ربهم، وحمد ربهم على هذه النعمة، والإيمان بمحمد صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم، وهو صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم نعمة عظمى، أعظم الرسل، وأشرف الرسل، وأكمل الرسل، وسيد ولد آدم صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم، هو شاهد على أمته بأعمالها، وشاهد مع أمته على الأمم السابقة بأن الرسل قد بلغوهم.

ثم يحذرهم الله -عزَّ وجلَّ- من أن يسلكوا مسلك الأمم التي عصت الرسل كما فعل فرعون وقومه، حيث أرسل لهم -سبحانه- موسى -عليه السلام- رسولًا فلم يطيعو؛ بل كذبوه وعاندوه بعد أن جاءهم بالآيات العظام من ربه -سبحانه وتعالى-، فعصى فرعون وقومه، وأرادوا إهلاكه -

عليه السلام- ومن آمن معه، فنجى الله -عزَّ وجلَّ- موسى ومن آمن معه، وأهلك فرعون وقومه، وأخذهم أخذًا شديدًا بليغًا، حيث أطبق عليهم البحر إطباقًا، ثم صار فرعون إلى عذاب يتجلجل فيه إلى يوم القيامة.

وفي هذا تهديد لهم، أعني لمن بُعث إليهم نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، أنكم إن فعلتم ما فعل فرعون وقومه، فعاندتم رسولكم، وعصيتم فإن الله قد يأخذكم في الدنيا أخذًا شديدًا كما أخذ فرعون وقومه.

وإن سلمتم في الدنيا فلن تنجو يوم القيامة، في يوم الفزع الأكبر، والأهوال العظيمة، في اليوم الذي يشيب فيه الولدان الصغار؛ لشدة هوله، ولعظم الخوف فيه، ويذيب الجمادات الصلاب العظام، فتتفطر السماء لهوله وتتشقق، وتتناثر نجومها.

وهو أمر أخبر الله به ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾[النساء:١٢٢]، وهو أمر وعد الله به ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾[الإسراء:٥]، واقعًا لا محالة.

ولن تجدوا شيئًا تتقون به عذاب الله في ذلك اليوم، وتنجون به من الفزع الأكبر في ذلك اليوم إن متم على الكفر، فليس للكافر يوم القيامة إلا الفزع الشديد، والعذاب الأكيد.

إن هذه الآيات العظام في هذه السورة وما فيها من صنيع الله -عزَّ وجلَّ- بالكافرين المعاندين، وما أعده لهم من العذاب الأليم يوم القيامة، ومن الفزع العظيم المهول في ذلك اليوم، إنها فيها لعظة وعبرة لأصحاب العقول، فمن أراد فليتخذ إلى ربه سبيلًا فيه النجاة، بأن يؤمن بالله -عزَّ وجلَّ-، ويؤمن برسوله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، ويلزم شرعه، فمن فعل ذلك نجا، وإلا كان من الهالكين.

(المتن)

-قال -رحمه الله-: يقول تعالىٰ: احمدوا ربكم علىٰ إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد علىٰ الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا بهذه النعمة الجليلة.

(الشرح)

ومن المخاطب بقول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾؟ قيل: قريش؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم بُعث فيهم.

وقيل: العرب؛ لأن النبي صَـلَّى اللهُ عَليهِ وَسَـلَّم كان بين أظهرهم ومنهم، فكان الخطاب أولًا موجهًا إليهم، ثم من بعدهم إلى جميع الناس؛ لأن محمدًا صَـلَّى اللهُ عَليهِ وَسَـلَّم بُعث إليهم جميعًا.

وقال جماعة من المفسرين: إن الخطاب ابتداءً للناس جميعًا؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم أُرسل إلى الناس جميعًا.

(المتن)

قال: وإياكم أن تكفروا، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسىٰ بن عمران.

(الشرح)

لماذا خصَّ الله -عزَّ وجلَّ- بالذكر موسى -عليه السلام- ، ومن الكفار فرعون؟

قال العلماء: خصَّ الله -عزَّ وجلَّ- موسى بالذكر لأن العرب كانت تعرفه، فكانوا يعرفونه من خلال رحلة الشتاء والصيف، ومن خلال جيرانهم اليهود الذين كانوا في المدينة. وخصَّ فرعون لأن فرعون من الكفار أولي النعمة، أعطاه الله أمورًا عظيمة، فطغى وتجبر، حتى قال للناس: أنا ربكم الأعلى، فمع طغيانه وتجبره أخذه الله أخذًا وبيلًا، وأهلكه، فمن دونه من باب أولى إن فعل فعله.

(المتن)

قال: فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسىٰ بن عمران، فدعاه إلىٰ الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه {فأخذه الله أخذًا وبيلًا} أي: شديدًا بليغًا.

(الشرح)

الوبيل: هو الشديد، ومنه الوابل، المطر الوابل، المطر الوابل، أي: المطر الشديد الكثير.

فالوبيل هو: الشديد، أي: أخذه الله -عزَّ وجلَّ- أخذًا شديدًا غليظًا ثقيلًا.

(المتن)

{١٧ - ١٨} {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولا}.

أي: فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة من يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم خطره، الذي يشيب الولدان.

(الشرح)

الولدان: جمع وليد، والوليد هو الصغير حديث العهد بالولادة.

والصغير جدًا حديث العهد بالولادة هو أبعد ما يكون عن الشيب، ومع ذلك يشيب من هول ذلك اليوم، فيبيض شعره، ويضعف بدنه، وتقل حركته، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: «يقولُ اللهُ تعالَىٰ: يا آدمُ ! فيَقولُ: لبَّيْكَ وسعديْكَ والخيرُ في يديْكَ، فيقولُ: أخْرِجْ بعْثَ النارِ»، أي: أخرج من سيرسلون إلى النار.

«قال: وما بَعْثُ النارِ؟ قال: من كلِّ ألْفٍ تِسعُمائةٍ وتِسعةٌ وتِسعينَ»، أي: الناجي واحد.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: «فعِندَها يَشيبُ الصغيرُ»، لأن الخوف يعظم، ألف يؤخذ منها تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، والناجي واحد.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: «فعِندَها يَشيبُ الصغيرُ وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وتَرَىٰ النَّاسَ سُكَارَىٰ، ومَا هُمْ بِسُكَارَىٰ، ولَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ»، متفق عليه رواه البخاري ومسلم.

وهنا في هذه الآية قيل تقدير الكلام: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾، أي: إن كفرتم بذلك اليوم كيف تتقونه، ما دامتم لا تؤمنون به كيف تتقونه وهو واقع لا محالة، فتسيرون إلى هوله وأنتم غافلون؛ لأنكم لا تؤمنون به.

وقيل تقدير الكلام: كيف تتقون يومًا إن كفرتم، أي: إن كفرتم بالله وبرسوله، كيف تتقون أهوال ذلك اليوم إن كفرتم بالله ورسوله، فإن الكافر لا يتقي أهوال ذلك اليوم، ولا يحصل له أمان في ذلك اليوم، وهو في خزي وفزع شديد في ذلك اليوم.

(المتن)

قال: وتذوب له الجمادات العظام، فتنفطر به السماء وتنتثر به نجومها.

(الشرح)

تنفطر السماء، أي: تتصدع وتتشقق.

(المتن)

{كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولا}.

(الشرح)

أي: مع قوتها وماتنتها، وأنك لو نظرت ما ترى فيها فطورًا، في ذلك اليوم لشدة الهول تتشقق، وتتصدع.

(المتن)

{كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولا}.

(الشرح)

({كَانَ وَعْدُهُ})، **الضمير هنا:**

قيل: عائد إلى الله؛ للعلم به، وإن لم يكن مذكورًا، أي: معلوم أن الذي وعد هو الله، نعم هو غير مذكور، والأصل أن الضمير يعود إلى مذكور؛ لكن يقول أهل اللغة: يجوز أن يعود الضمير إلى غير مذكور إذا كان معلومًا، السامع يعلمه ولو لم يُذكر في السياق.

فيكون المعنى: أي كان وعد الله مفعولًا واقعًا لا محالة.

وقيل: إن الضمير عائد إلى اليوم، ({كَانَ وَعْدُهُ})، أي: كان وعد ذلك اليوم واقعًا لا محالة، أي: الموعود في ذلك اليوم، الموعود في ذلك اليوم كان واقعًا لا محالة.

(المتن)

أي: لا بد من وقوعه، ولا حائل دونه.

{١٩} {إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلا}.

[أي:] إن هذه الموعظة التي نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأهوالها، تذكرة يتذكر بها المتقون، وينزجر بها المؤمنون.

(الشرح)

قال جماعة من المفسرين: ({إِنَّ هَذِهِ})، أي: الآيات التي ذكرت فيها هذه الأهوال.

وقيل: الآيات السابقة كلها من أول السورة.

وقيل: السورة كلها.

وقيل: سور القرآن وآياته كلها.

والأقرب -والله أعلم-: أن المقصود السورة، إن هذه السورة وما ذُكر فيها تذكرة وموعظة.

(المتن)

{فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلا} أي: طريقًا موصلًا إليه، وذلك باتباع شرعه، فإنه قد أبانه كل البيان، وأوضحه غاية الإيضاح.

(الشرح)

أي: طريقًا موصلًا إليه ينجو به من سلكه؛ وذلك بالإيمان به، والإيمان برسوله، واتباع شرعه. فالطريق بيَّن للعبد، بيَّنه الله -عزَّ وجلَّ- بالوحي، وللعبد مشيئة، وله عقل، ({فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلا})، مستقيمًا فينجو، ومن شاء أهلك نفسه ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[التكوير:٢٩].

(المتن)

قال: وفي هذا دليل علىٰ أن الله تعالىٰ أقدر العباد علىٰ أفعالهم، ومكنهم منها.

(الشرح)

أي: أن للعبد مشيئة يستطيع أن يختار بها، كما يستطيع أن يجلس في مجلسنا أو يذهب، يستطيع أن يجلس أو يقوم، يستطيع أن يأكل أو يصوم، يستطيع أن يتكلم أو يسكت، هذه أمور يدركها الإنسان من نفسه، أمور قطعية، يقينية، ولكن مشيئة الإنسان تحت مشيئة الله، فلا يكون في كون الله إلا ما شاء الله -سبحانه وتعالى-.

(المتن)

لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النقل والعقل..

(الشرح)

أي: يقولون أن الإنسان مجرد آلة، وأفعاله تقع بغير مشيئة منه ولا إرادة، وهذا مباهتة للعقل ومخالفة للنقل.

(المتن)

قال -تعالى-: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

(الشرح)

بعد أن أمر الله -عزَّ وجلَّ- نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم وأصحابه تبعًا له بقيام الليل في أول السورة، مخيرًا لهم بين قيام نصفه، أو أقل من نصفه قليلًا وهو الثلث، أو أكثر منه وهو دون الثلثين، ظلّ الصحابة -رضوان الله عليهم- يفعلون ذلك مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم مدة سنة، وكانوا لا يعرفون بالدقة مقدار الليل، فيزيدون على أنفسهم؛ خوفًا من النقص والمؤاخذة، فتنفخت أقدامهم، وضعفت قواهم.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «لمَّا نزلت أَوَّلُ المزَّمِّلِ كانوا يقومونَ نحوًا من قيامِهِم في شهرِ رمضانَ حتَّىٰ نزلَ آخرُها وَكانَ بينَ أوَّلِها وآخرِها سنةٌ»، رواه أبو داود، وصححه الألباني.

أخبر -سبحانه- في آخر السورة أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم مع طاعته، وطائفة ممن معه، وامتثالهم لهذا الأمر، وأنهم تارة يقيمون نصف الليل، وتارة يقيمون أدنى من الثلين، وتارة يقومون الثلث، ما كانوا يحصون الوقت بالدقة، فكانوا يزيدون على أنفسهم، والله يقدر الليل والنهار طولًا وقصرًا، فتارة يعتدلان، وتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة يقصر الليل ويطول النهار، وفي ضبط مقدار النصف أو الأقل أو الأكثر مشقة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم وأصحابه، ورحمهم الرحيم -سبحانه وتعالى- علم أنهم لن يحصوه، ولن يضبطوا تلك المقادير، فخفف عنهم تحديد مدة القيام، فقوموا ما تيسر لكم من غير تحديد بوقت، واقرءوا ما تيسر لكم من القرآن من غير تحديد بمقدار. وعلم -سبحانه- أن سيكون منكم أهل أعذار، وتعتريكم أحوال من مرض، وسفر لطلب الرزق، وسفر للجهاد في سبيل الله والله بكم رؤوف رحيم؛ فخفف عنكم وجوب قيام الليل إلى الاستحباب بما تيسر.

وإن الواجب عليكم إقامة الصلوات المفروضة، وإيتاء الزكاة المفروضة، وفي الصلاة حسن الصلة بالله، وفي الزكاة حسن الصلة بالخلق، ومن حسنت صلته بالله وصلته بالخلق تمت سعادته، السعادة والطمأنينة أن يكون الإنسان حسن الصلة بالله، حسن الصلة بالخلق.

ومن زاد في إخراج الأموال في سبيل الله فذاك خير له، فإن الله يضاعفه له أضعافًا كثيرة، وما يقدمه الإنسان لله خير له؛ لأنه هو الذي يبقى، وغيره يفنى، وسيجد ما يقدمه لله عند الله مضاعفًا.

({وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ})، فإنه لا غنى لكم عن مغفرة الله -عزَّ وجلَّ-، فأنتم بين خير تقصرون فيه، فتحتاجون إلى مغفرة الله، وبين ذنب تقعون فيه، فتحتاجون إلى مغفرة الله -سبحانه وتعالى-.

(المتن)

قال الشيخ السعدي -رحمه الله تعالى-: ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام، وذكر في هذا الموضع، أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين.

ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة علىٰ الناس، أخبر أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل فقال: {وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} أي: يعلم مقاديرهما وما يمضي منهما ويبقىٰ.

(الشرح)

أي: والله يقدر الليل والنهار من جهة الطول والقصر، هذا المراد هنا؛ لأنه هو المناسب للسياق.

(المتن)

{عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ} أي: [لن] تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص، لكون ذلك يستدعي انتباهًا وعناءً زائدًا.

(الشرح)

ومشقة شديدة.

المقصود: علم أنكم لن تضبطوا مقداره؛ لأنه يطول ويقصر، فلن تضبطوا مقداره، وهذه يؤدي إلى المشقة من جهة الضبط ومن جهة العمل، وقد كان من الصحابة -رضوان الله عليهم- مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم أن ذلك شقَّ عليهم، تقول أمنا عائشة -رضي الله عنها-: «إِنَّ أَوَّلَ سورَةٍ

المزمل نَزَلَ، فَقَامَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم حَتَّىٰ انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ»، أي: لأنهم ما كانوا يضبطون فكانوا يزيدون حتى انتفخت أقدامهم.

«وَحُبِسَ خَاتِمَتُهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ نَزَلَ آخِرُهَا، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ»، رواه أبو داود، وصححه الألباني.

(المتن)

أي: فخفف عنكم، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على المقدر أو نقص. {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} أي: مما تعرفون ومما لا يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأمورا بالصلاة ما دام نشيطًا، فإذا فتر أو كسل أو نعس، فليسترح، ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة.

(الشرح)

({فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ}):

قال بعض العلماء: هي على ظاهرها فاقراءوا ما تيسر لكم من القرآن من غير تحديد بمقدار.

وقال بعض العلماء: معنى ({فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ})، أي: صلوا، والصلاة تسمى قرآنًا، فاقرءوا أي: صلوا بما تيسر من القرآن.

وهنا قال بعض العلماء: إن هذا التخفيف كان من الوجوب إلى الاستحباب بالنسبة لقيام الليل، وقول الله -تعالى-: ({فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ})، أي: في الفرض في الليل، صلاة المغرب وصلاة العشاء وصلاة الفجر.

وقال بعض العلماء: ({فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ})، إن شئتم.

أي: الأولون يقولون ({فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ}): هذا أمر، والأمر يقتضي الوجوب، **أين؟** في الفرض، في المغرب والعشاء والفجر، أما في قيام الليل فهو على الاستحباب.

والآخرون يقولون: تقدير الآية ({فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ})، إن شئتم، فيكون المقصود القراءة في قيام الليل.

وقال بعض العلماء: بل بقي قيام وجوب الليل من غير تقدير بمدة؛ بل بحسب ما يتيسر للإنسان، وهذا ذهب إليه بعض التابعين، يقولون: إن قيام الليل لا زال واجبًا؛ لكن بحسب ما يتيسر؛ لكن هذا القول ضعيف.

وحتى على هذا فإن التخفيف في قيام الليل كان على مرحلتين:

المرحلة الأولى: التخفيف من وجوب قيام نصف الليل، أو أقل منه قليلًا، أو أكثر قليلًا، إلى وجوب قيام الليل من غير تقدير مدة.

المرحلة الثانية: ثم نسخ هذا للأعذار المذكورة في الآية إلى الاستحباب، هذه المرحلة الأخيرة؛ فصار مستحبًا.

(المتن)

قال -رحمه الله-: ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال:

(الشرح)

إذًا أول الآية: ({إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ}):

({فَتَابَ عَلَيْكُمْ}): التوبة أصلها الرجوع والعودة، أي، فعاد عليكم بالتخفيف.

({فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ})، هنا نسخ لوجوب قيام نصف الليل، أو أقل منه قليلًا، أو أكثر قليلًا إلى وجوب قيام الليل من غير مدة، من غير تحديد مدة ولو يسيرًا.

ثم بقيت الآية نسخ للوجوب إلى الاستحباب، فالناسخ لوجوب قيام الليل هو آخر الآية ({عَلِمَ}).

(المتن)

فقال: {عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ} يشق عليهم صلاة ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه، فليصل المريض ما يسهل عليه، ولا يكون أيضًا مأمورًا بالصلاة قائمًا عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة، فله تركها [وله أجر ما كان يعمل صحيحًا].

(الشرح)

الله خفف على الأمة في صلاة النافلة تخفيفًا عظيمًا؛ وذلك لحث الناس على كثرتها، ومن ذلك أنه يجوز للإنسان أن يصلي النافلة قاعدًا ولو من غير مشقة، وإذا صلى جالسًا بعذر فإنه يأخذ الأجر كاملًا؛ بل لو شقَّ عليه أن يأتي بها في بعض الوقت فإنه يتركها ويؤجر عليها.

لنضرب مثال الآن بقيام الليل في رمضان: أنت تقوم مع الإمام، قمت عشر أيام مع الإمام، في اليوم الحادي عشر مرضت، ما استطعت أن تقوم مع الإمام، أو شقَّ ذلك عليك، جلست في بيتك؛ يكتب لك أجر قيام ليلة الحادي العشر ما دمت مريًا حتى تشفى.

وهذا يجعل الإنسان حريصًا لاعلى أن يقوم بالنافلة حال قوته حتى لو عجز يكتب له أجر النافلة.

-مثلًا- لو كنت تصوم الاثنين والخميس، وكبرت في السن وصرت ما تستطيع أن تصوم الاثنين والخميس، يُكتب لك أجر صيام الاثنين والخميس ما دمت حيًا، من الممكن أن تبقى عشر سنين ما تصوم؛ لأنك كبير؛ لكن يجرى عليك أجر صيام الاثنين والخميس.

يا إخوة ازرعوا لأنفسكم غدًا اليوم، ما دمتم في حال القوة أكثروا من النوافل حتى إذا أصابكم عجز أو كبر يُكتب لكم أجر تلك النوافل كأنكم تعملونها، وهذا فضل عظيم.

(المتن)

{وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ}.

(الشرح)

الضرب في الأرض: هو المشي فيها والتنقل في أرجائها.

(المتن)

أي: وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة، ليستغنوا عن الخلق، ويتكففوا عنهم، أي: فالمسافر، حاله تناسب التخفيف، ولهذا خُفف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمع الصلاتين في وقت واحد، وقصر الصلاة الرباعية.

وكذلك {آخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} فذكر تعالىٰ تخفيفين، تخفيفًا للصحيح المقيم، يراعي فيه نشاطه، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرىٰ الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول.

وتخفيفًا للمريض أو المسافر، سواء كان سفره للتجارة، أو لعبادة، من قتال أو جهاد، أو حج، أو عمرة، ونحو ذلك، فإنه أيضا يراعي ما لا يكلفه.

(الشرح)

أي: ما لا يشق عليه، فيأتي بما لا يشق عليه، ويخفف عنه.

(المتن)

قال: فلله الحمد والثناء.

(الشرح)

هنا ذكر بعض أهل العلم أن هذه الأسباب تقتضي التخفيف في التكاليف كلها، وهذا ما وقع في الرُخص الشرعية؛ لكن المراد هنا: أن هذه الأسباب اقتضت التخفيف بنسخ وجوب قيام الليل إلى كونه مستحبًا، أي: المقصود هنا خاص، وهو أنها اقتضت التخفيف بنسخ وجوب قيام الليل إلى كونه مستحبًا.

(المتن)

قال: فلله الحمد والثناء الذي ما جعل علىٰ الأمة في الدين من حرج، بل سهل شرعه، وراعىٰ أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم.

ثم أمر العباد بعبادتين، هما أم العبادات وعمادها: إقامة الصلاة، التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، فقال: {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ}، أي: بأركانها، وحدودها، وشروطها، وجميع مكملاتها.

(الشرح)

تقدم معنا أن السورة مكية، وهنا الكلام عن إيتاء الزكاة، والزكاة إنما عرفت مقاديرها في المدينة.

وهذا جعل بعض العلماء يقول: إن هذه السورة مكية إلا آخر آية مدنية.

وقال بعض العلماء: إن السورة كلها مكية، وهذا إخبار من الله عن أمر سيقع مستقبلًا.

وقال بعض العلماء: إن الآية مكية، وإن الله فرض الزكاة على المسلمين في مكة كالصلاة؛ لكن تحديد المقادير والأموال الزكوية كان في المدينة، أي: كانت واجبة من غير تحديد، ثم صار التحديد في المدينة.

(المتن)

{وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا} أي: خالصا لوجه الله، من نية صادقة، وتثبيت من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا، الصدقة الواجبة والمستحبة.

(الشرح)

فالقرض الحسن هو: الذي يكون لله، من مال طيب، ولا تصاحبه منة.

(المتن)

-قال -رحمه الله-: ثم حث على عموم الخير وأفعاله فقال: {وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا} الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

(الشرح)

لن يأتي العبد بخير ويجزى بمثله؛ بل أقل من يجزى إذا قُبل عمله من يجزى بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[البقرة:٢٦١].

(المتن)

-قال -رحمه الله-: وليعلم أن مثقال ذرة من الخير في هذه الدار من الخير، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات.

(الشرح)

أي: إذا عملت خيرًا فقبله الله، وأدخلك الجنة بفضله، فإن النعيم الذي في الجنة لا يخطر على قلب بشر، فلو كانت الدنيا كلها تقدم مهرًا للجنة لكانت قليلة، فكيف والمطلوب إنما هو قليل، إنما هو اجتهاد يسير، وفضل الله عظيم.

(المتن)

قال: وأن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه، فواأسفاه علىٰ أوقات مضت في الغفلات، وواحسرتاه علىٰ أزمان تقضت بغير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها. فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكىٰ، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

{وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث علىٰ أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد لا يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلًا أو يفعله علىٰ وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار، فمتىٰ لم يتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك.

(الشرح)

ولذلك العبد إما أنه يفعل خيرًا على وجه الكمال بحسب استطاعته، فيرقيه الاستغفار في الكمال.

وإما أن يفعل خيرًا على وجه التقصير، وهذا الكثير، فيرقع التقصير بالاستغفار.

وإما أن يذنب ذنبًا، فيحتاج أن يستغفر الله ليغفر الله -عزَّ وجلَّ- له.

بهذا ننتهي من تفسير سورة المزمل، بقي معنا الفوائد الكبرى والحكم العظمى من هذه السورة، وسأجعلها في بداية الدرس غدًا؛ حتى تكون الأذهان أنشط -إن شاء الله عزّ وجلَّ- ثم نشرع في تفسير سورة المدثر.

(الأسئلة)

السؤال: كنت في البيت ولم أسمع أذان الفجر، وأكلت بين الأذان والإقامة، هل علي شيء؟

الجواب: إن كنت فرطت وحصل منك تقصير، فاقضِ ذلك اليوم.

وإن كنت لم تفرط، ولم تقصر، وكنت تظن أن الليل باقٍ فلا شيء عليك؛ لأن الأصل بقاء الليل حتى يتبين لك طلوع الفجر.

السؤال: امرأة توفي عنها زوجها وعند أولاد وأردات إخراج زكاة الفطر، فقال لها أخوها: أنا أخرجها عنكِ، فهل يصح هذا؟

الجواب: نعم إذا أذنت له، فأخرجها بإذنها نعم، أما أن يخرجها بغير إذنها فما تنفع؛ لأنها عبادة لابد لها من نية، فإن استأذنها أخوها، وقال: أريد أن أخرج عنكِ زكاة الفطر؟ قال: طيب، جزاك الله خيرًا، فإن هذا ينفعها -إن شاء الله-، وينفعه، ويؤجر على ذلك -إن شاء الله عزَّ وجلَّ-.

أسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، ونحن نستعد لاستقبال العشر الأواخر من رمضان، أسأل -سبحانه- أن يعيننا جميعًا على ذكره، وشكره، وحسن عبادته، في هذه العشر المقبلات، وأن يتقبل منا أجمعين.

يا ربنا يا حي يا قيوم نسألك ونحن نستعد لاستقبال العشر التي نفرح بها، نسألك أن تفرح قلوبنا بتفريجك الكربات عن جميع إخواننا، اللّٰهم فرج الكربات عن جميع إخواننا، اللّٰهم فرج الكربات عن جميع إخواننا، اللّٰهم انجِ المستضعفين من إخواننا في كل مكان يا رب العالمين يا ربنا يا ربنا يا ربنا افرح قلوبنا بنجاة المسجد الأقصى من أيدي اليهود يا رب العالمين، يا ربنا، يا ربنا، يا ربنا، يا ربنا لا تمتنا إلا وقد خلصت المسجد الأقصى من أيدي اليهود يا رب العالمين.

يا ربنا أفرح قلوبنا بزوال الفتن الشديدة من ديار المسلمين، اللّٰهم يا ربنا اجعل إخواننا المسلمين في كل مكان في أمن وإيمان وطمأنينة، وسعة رزق يا ب العالمين.

اللّٰهم يا ربنا وفق ولاة أمور المسلمين إلى ما تحب وترضى، اللّٰهم زد ولي أمرنا وولي عهده توفيقًا وإعانة واجعلهما رحمة على البلاد والعباد والمسلمين يا رَبَّ العالَمِين، اللّٰهم قربهما من كل خير، وقرب الأخيار منهما يا رَبَّ العالَمِين، اللّٰهم وفق علماء المسلمين إلى ما تحب وترضى.

اللّٰهم يا ربِ إن هؤلاء العباد قد اقتطعوا من أوقاتهم، وجلسوا يسمعون العلم، اللّٰهم يا ربِ إنك أعلم بهم، اللّٰهم فاملأ قلوبهم سعادة، اللّٰهم فاملأ قلوبهم سعادة، اللّٰهم فاملأ قلوبهم سعادة. اللّٰهم فزدهم إيمانًا، اللّٰهم زدهم إيمانًا، اللّٰهم زدهم إيمانًا، اللّٰهم إن لكل منهم سؤلًا اللّٰهم فآته سؤله، اللّٰهم فآته سؤله، اللّٰهم فآته سؤله، واقبل شفاعته لمن شفع له يا رب العالمين. ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة.

والله -تعالى- أعلى وأعلم، وصلى الله على نبينا وسلم.